

الصُّوفية المقاتلة (١)

يوسف سمرين - القدس الشريف

بعد سلسلة من المقالات عن الصُّوفية كان هناك اعتراض تكرَّر من أنصارها: إنَّ هؤلاء لا يمثِّلون التَّصوُّف!

وهكذا بجرَّة قلم يُهدر التَّحقُّق التَّاريخي لتيار كامل، ويُستبدل بالكلام عن أفكار عامَّة مجرَّدة كأنَّها لم تختبر مرَّة طيلة قرون، مع أنَّ التَّجربة العملية فضَّاحة لكثير من الأفكار.

والأمر شبيه بفقدان الذَّاكرة للتَّاريخ الكنسي والبدء بالنّقاش من مبدأ التَّسامح المجرَّد: «**مَن لطمك على خدك الأيمن فحوِّل له الآخر أيضًا**»[1]، ثم يقال بعدها: هذا لا يمثِّل الكنيسة ولا تاريخها الممتد لقرون! وإن كان هذا المبدأ الجميل لم يتحقق على أرض الواقع ولم يقد تاريخ الكنيسة يومًا!

وهكذا فإنَّ الانحصار في الأفكار المعلنة دون التَّجربة التَّاريخية يجعل التَّصوف لا وجود له إلا كتجريد ذهنيٍّ كأنه ابتكر أوَّل أمس! والالتفات إلى الأفكار المجرَّدة دون التَّجربة التَّاريخية يشبه التَّحقق من جودة منتج من الدِّعاية له فقط!

وكان هناك اعتراض آخر عند الحديث عن الرُّكون والجبرية والحفاظ على الوضع القائم والمشيخيَّة لدى الصوفية، بالحديث عن القتال الذي خاضته طوائف من الصُّوفية ضد الاستعمار الحديث، رغم أنَّه لم يكن هناك أيُّ نفي للقتال الصُّوفي عبر التَّاريخ.

بل القتال جزء مكوِّن من أفكار المتصوِّفة إلى حدٍّ بعيد! فالطَّريقة تمثِّل ما يشبه الصِّيغة الرُّوحية لنظام الإقطاع السائد آنذاك، وقد كان للطريقة جناحها المقاتِل الذي يأتمر بأمر المرشد الصوفي، فيما عرف تاريخيًا بالفتوَّة، وهي التي قيل في وصفها: «**الفتوَّة: سيفٌ مسلول**»[2]، وعدَّ ابن عربي الحاتمي (٦٣٨هـ)

١- إنجيل لوقا، ٦: ٢٩.

٢- الفتوة، محمد بن أبي المكارم، ص ١٥٤.

الفتوَّة «**مقام القوَّة**»[3].

وهذا المصطلح كباقي مصطلحات الصُّوفية كسوه بمعانٍ خاصَّة لم تأتِ دلالتها أصالةً في النُّصوص الدِّينية، ومن ذلك أنَّ القرآن ذكر قوم إبراهيم: ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ [الأنبياء: ٦٠]، وهو بيان لأنَّه كان «**شابًا**»[4]، لكنَّ وصف «**فتى**» أضحى عند الصُّوفية منزلة بأوصاف مخصوصة وزعموا أنَّ «**الفتوَّة خصلة من خصال الدِّين وصِفة مكمِّلة للعارفين**»[5]، لا مرحلة عمريَّة، وقالوا: «**مبدأ الفتوَّة ومنشؤها إبراهيم الخليل وهو أبو الفتيان حيثُ كسَّر الأصنام**»[6]، وألَّف السُّلَمي (٤١٢هـ) صاحب كتاب (طبقات الصُّوفية) كتابًا بعنوان (الفتوَّة)، وزعم أنَّه قد «**لُقِّب بها إبراهيم الخليل**»[7]، وفي شرحه لها وصفها بأوصاف كثيرة خلاصتها أنها نوعٌ من الالتزام بالأخوية داخل الطَّريقة: «**هي الموافقة وحسن الطاعة**»[8]، فهي نوع من الجندية تأتمر بأمر المرشد، قال: «**من الفتوَّة قبول ما يسمعه من كلام الحكماء وإن لم يفهم**»[9]، وينبغي عليه «**إسقاط طلب العثرات، وتحسين ما يبدو من العثرات**»[10]، وتصل إلى أنه «**يمكِّن إخوانه أن يحكموا في ماله كحكمهم في أموالهم**»[11]، فهي تشمل «**موافقة الإخوان على الجملة وترك الخلاف عليهم**»[12].

فصمَّمَ المتصوِّفة معاني الفتوَّة، ووُضعت فيها أحاديث، ومنها: «**قال عليٌّ: يا رسول الله، وما الفتوَّة؟ فقال عليه السَّلام: هي شرف يتشرَّف به أهل النَّجدة**»[13]، وضمّنوها معاني البذل والتَّضحية حتى قال القُشيري (٤٦٥هـ): «**أصلُ الفُتوَّة أن يكون العبدُ دائمًا في أمرِ غيره**»[14]، فهي بذل للآخرين، وقال ابن عربي: «**أصلُ الفتوَّة: أن تخرج عن حظِّ نفسك إيثارًا لحظِّ غيرك**»[15]، ولما زعموا أنَّ مبدأ الفتوَّة من إبراهيم عليه السلام فقد جعل ابن عربي من ذلك أصلًا يدلُّ على ما يفترضونه فيمن يصفونهم بالفتيان، فقال: إنَّ هذا الإيثار مثل «**إبراهيم عليه السَّلام جاد بنفسه على النَّار إيثارًا لتوحيد ربِّه**»[16].

وهكذا فإنَّ الدَّعوة إلى الفداء والتَّضحية من صميم ما يصفونه بالفتى، بما شكَّل عقيدة قتالية لهؤلاء، أما ما ردَّدته بعض الدِّراسات الحديثة من وجود تاريخ قديم للفتيان، فهو ترديد للدِّعاية الصُّوفية التي سعت لتصوير الفتوَّة كأنها ضاربة في التَّاريخ، مع أنَّ هذا المفهوم تشكَّل في رحم الأطروحات الصُّوفية، وحاجتها لبسط نفوذها على المجتمع.

وبهذه الطَّريقة كان لكثير من الطُّرق الصُّوفية فتية يدافعون عنها، لتشكِّل بهم ثِقلًا اجتماعيًا، وخصَّصوا هؤلاء بلبس معيَّن، وفي آدابهم على المرء ألا يتزين «**بزي الفتيان، إلا بعد حمل أثقال الفتوَّة**»[17]، فعندما يختارون واحدًا منهم فإنَّهم يستقبلون ذلك «**الفتى في نقابة الفتوَّة بشدِّ خصره بفوطة أو محزم، وبإلباسه لباس الفتوَّة، الذي يمتاز بالسَّراويل، ويُسقى كأس الفتوَّة الماء المشوب بالملح**»[18]، على اعتبار أنَّ «**الملح من المواد المقدَّسة، فهو يُصلح كلَّ ما فسد**»[19]، ويكون ذلك بحضرة المكمِّل وهو «**الذي يعطي السَّراويل، أو السِّلاح**»[20].

لقد كثر الحاملون لهذا اللَّقب، وشكَّلوا «**عصابات مؤلفة غير خاضعة لقوانين الدَّولة**»[21]، أي: مليشيا شعبية[22]، وصفت بإثارة الشَّغب والنَّهب وابتزاز الأغنياء وفرض إتاوة الحماية على أصحاب الدكاكين[23]، قال ابن الجوزي (٥٩٧هـ): «**يُسمون بالفتيان ويقولون: الفتى لا يزني ولا يكذب ويحفظ الحرم، ولا يهتك ستر امرأة، ومع هذا لا يتحاشون من أخذ أموال النَّاس، وينسون تقلي الأكباد على الأموال ويسمون طريقتهم الفتوَّة**»[24].

وهذا في مرحلة متقدِّمة في القرن الرَّابع، يقول د. مصطفى جواد: إنَّ «**العيَّارين مالوا في ذلك العصر أي: في أوساط القرن الرَّابع الهجري إلى إلحاق عيارتهم وشطارتهم بالفتوَّة... وكان ذلك من أعظم وأسوأ الآثار على المجتمع، فأولئك الفتيان -بدلًا من اتحاد غاياتهم وتوحيد مجهودهم**

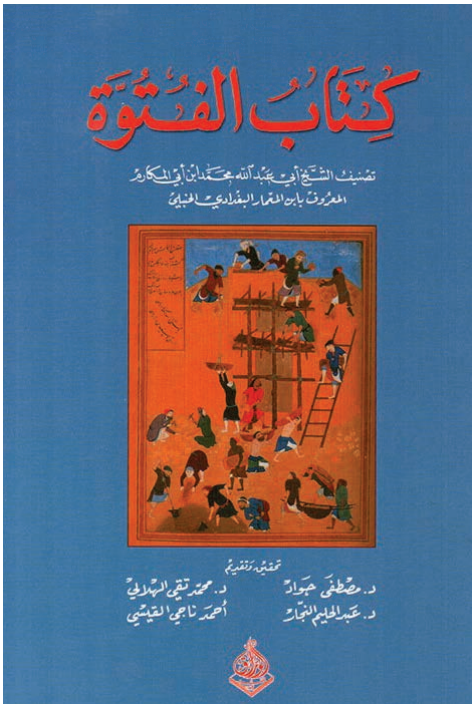
---

٣ - الفتوحات، دار الكتب العلمية، ٣٦٥/١.
٤ - تفسير ابن كثير، دار ابن الجوزي، ٣٣٩/٥.
٥- الفتوة، محمد بن أبي المكارم، ص ١٣٩.
٦ - المصدر السابق، ص ١٤٠.
٧ - الفتوَّة، السُّلمي، دار الرَّازي، عمَّان، ص ٣.
٨ - المصدر السابق، ص ٥.
٩ - المصدر السابق، ص ٣١.
١٠ - المصدر السابق، ص ٧٦.
١١ - المصدر السابق، ص ١٢.
١٢ - المصدر السابق، ص ٢٢.
١٣ - المصدر السابق، ص ١٣٤.
١٤ - الرِّسالة القُشيرية، تحقيق: معروف زريق، علي عبد الحميد، دار الخير، ص ٢٢٦.
١٥ - الفتوحات، ٣٥١/٣، باختصار يسير.
١٦ - المصدر السابق، ٣٥١/٣.
١٧ - الفتوَّة، السُّلمي، ص ٨٧.
١٨ - الفتوَّة؛ نشأتها وتطورها حتى سقوط الخلافة العبَّاسية، أحمد محمَّد الخطمي، ص ٢٦، بتصرُّف يسير.
١٩ - المصدر السابق، ص ٢٧.
٢٠ - المصدر السابق.
٢١ - أهل الفتوَّة والفتيان في المجتمع الإسلامي، ألكساندر خاتشاتريان، المركز العربي للأبحاث والتَّوثيق، ص ٦٢.
٢٢ - انظر: المصدر السابق، ص ٣٥.
٢٣ - المصدر السابق، ص ٥٣.
٢٤ - تلبيس إبليس، دار القلم، ص ٣٨٠.

وتألبهم على عدوِّ الأمة- أخذوا يتحزَّبون، ويغتصبون، ويفتكون، وينهبون، ويقتلون باسم طريقة من الطرائق المعزوَّة إلى الدِّين»[25].

بقي هذا التَّشرذم حتى تدخلت الدَّولة فقرَّرت تبني الفتوَّة وإخضاعها لها، فقرَّر النَّاصر لدين الله في سنة ٥٧٨هـ «**توحيد طوائف الفتيان في طائفة واحدة تخضع له**»[26]، وهكذا اعترفت الدَّولة العبَّاسية بالفتيان، وفي الوقت نفسه أعلن الحاكم «**نفسه شخصيًا زعيمًا لهذا النِّظام**»[27]، وهو ما صار تقليدًا أثَّر لاحقًا في علاقة التَّصوف بالدَّولة، لا سيَّما مع الأتراك الذين كان لهم ارتباط قديم بالتصوُّف، وأقام سلاطين آل عثمان سلطتهم على التَّحالف مع الطُّرق الصُّوفية، وبلغ هذا الحِلف أوجه مع إصدار شيخ الإسلام فتيا تقرُّ بمؤلفات ابن عربي، وبناء سليم الأول ضريحًا له في دمشق سنة ١٥١٧م[28].

فصارت المعتقدات الصُّوفية هي النِّظام الرُّوحي للدَّولة وفي رأس الهرم يكون السُّلطان، وبقيت حتى عهد آخر السَّلطنة، فالسُّلطان عبد الحميد الثَّاني مثلًا «**انتسب في شبابه إلى الطَّريقة الشَّاذلية**»[29]، و«**نشأ في القصور ومن حواليه المولوية**»[30]، كما «**وجد في النَّظرة الصُّوفية الإشراقية ما يحقق حاجة الدولة العثمانية المتداعية في الالتفاف حول الخليفة باعتباره ظلَّ الله في الأرض**»[31]، وتكفَّل مشايخ الطُّرق بإعطاء هذه المكانة للسُّلطان مقابل تحالفهم مع الدَّولة، فردَّد مشايخهم مثل يوسف النَّبهاني الكلام الذي يمنع أدنى معارضة للسُّلطان، فقال: «**من ادَّعى أنه أكمل نظرًا من السُّلطان فهو مجنون**»[32]، مبشِّرًا بأنَّ آل عثمان «**تستمر دولتهم إلى قيام الختم، والقائم منهم إذ ذاك**»[33]، ويقرُّ المؤرخ التُّركي خليل إينالجيك بأنَّ «**الثقافة العثمانية في جوهرها ثقافة بلاط، ولهذا السَّبب أصبحت عقيمة، فقد وصلت هذه الثَّقافة إلى ذروتها الكلاسيكية في**



القرن السَّادس عشر، إلا أنها أخذت تفقد حيويتها نتيجة اقتصارها على خدمة البلاط»[34].

شكَّل مبدأ الولاء المطلق للسُّلطان والانقطاع للفداء والتَّضحية كما هي في الفتوَّة عقيدة محورية في تأسيس فرقة الإنكشارية في دولة آل عثمان، وهي مأخوذة من «**الكلمة التركية: يني جري، وتعني الجند الجديد**»[35]، فكانت هذه الفرقة من المناطق التي دخلها الأتراك، دون أيِّ أقارب لهم، يأخذونهم أطفالًا[36] وينقطعون للحرفة العسكرية، ويتربَّون بطريقة عثمانية[37]، ولم يكن يسمح لهم بالزَّواج ما داموا جنودًا[38]، وهكذا تم إنشاء قوة مستقلَّة عن التَّراكيب القبلية بيد السُّلطان[39]، وكانوا يتربون على الطريقة البكتاشية، وينظرون إلى شيوخ الطريقة على أنَّهم بمنزلة الأئمة لهم[40]، ثم صارت هذه الفرقة حملًا ثقيل الظِّل على دولة آل عثمان مع الزَّمن، وحوى تأسيسها وطريقة تفعيلها كارثة مؤجلة!

يتبع...

٢٥ - من مقدّمة مصطفى جواد لكتاب: الفتوة، لأبي المكارم، ص ٣٤.
٢٦ - الفتوّة: نشأتها وتطورها، الخطمي، ص ١٥٩.
٢٧ - المصدر السابق، ص ١٦٠.
٢٨ - انظر: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، خليل إينالجيك، ترجمة: محمد الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، ص ٣٠١.
٢٩ - والدي السلطان عبد الحميد الثاني، عائشة عثمان أوغلي، نقله إلى العربية: صالح سعداوي صالح، دار البشير، الأردن، ص ٨٠.
٣٠ - السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الإسلامية، موفق بني مرجة، مؤسسة صقر الخليج - الكويت، ص ١٢٢.
٣١ - المصدر السابق، ص ١٢٥.
٣٢ - خلاصة البيان في بعض مآثر السلطان عبد الحميد الثاني وأجداده آل عثمان، يوسف النبهاني، ص ١٨.
٣٣ - المصدر السابق، ص ٢٤.
٣٤- تاريخ الدولة العثمانية، خليل إينالجيك، ص ١٤١.
٣٥ - فرقة الإنكشارية في الدَّولة العثمانية؛ قراءة تفسيرية جديدة، أحمد عبد الله نجم، مركز التَّاريخ العربي للنشر، إسطنبول، ص ٢٤.
٣٦ - انظر: المصدر السابق، ص ٣٦.
٣٧ - المصدر السابق، ص ٢٩.
٣٨ - المصدر السابق، ص ٣٠.
٣٩ - المصدر السابق، ص ٣٣.
٤٠ - المصدر السابق، ص ٤٥.